السفر العجب الى بلاد الذهب

للاب اميل رينو اليسوعي (تابع لما سبق)

قد وقفتَ ايها القارئ اللبيب على اصل ميس جني وفصلها في ما سبق. وقد قلنا انَّ زوجة نسيب كانت متكئةً على المطالعة لمَّا قرع عليها الباب زوجها قافلًا من نيويرك فاطلَّت من الشبَّاك لترى من الطارق فاذا بستر نسيب ومعهُ غريبٌ كامد اللون مُنكر الهيئة فقالت: «هوذا نسيب قد عاد من السفر ولكن تُرى من هذا العملوك الذي اتاني به فبئس الهيئة هيئتُهُ»

وكان المستر نسيب في اثناء ذلك رقى سُلَّم الدار وفاضل يلحقُهُ فصرخ: «اسعد الله صباحكِ يا جنيّ»

— وصباحكَ ايضًا يا نسيب. ولكن ما وراءك يا صاح كأني بك كاسف البال كئيب القلب. قُل لي من هذا الغريب الذي يصحبك؟

وبينا تقول هذا اذ اقترب اليها فاضل مسلِّمًا فحنتْ جنيّ برأسها قليلًا تردّ عليهِ سلامهُ. فقدَّمهُ لها نسيب قائلًا:

— هو احد اصدقائي أتيتُ بهِ من نيويرك

فعبست جنيّ ولم تُبدِ حراكًا. ثمَّ اخذت بيد زوجها وادخلتهُ في مخدَعهِ وتركت فاضلًا في رواق الدار فلمَّا صارت وحدها مع نسيب انتهرتهُ قائلةً:

ومن هذا الصديق المزعوم؟ ما اسمهُ وأنَّى وجدتهُ؟ ولمَّا تردَّد نسيب في الجواب رفعت امرأتهُ بصوتها كأنها تزجرهُ:

— أترى بيتنا خانًا يحلُّ بهِ كلّ ابناء السبيل؟

فتلجلج نسيب قائلًا: انَّهُ رجلٌ مسكين... كان موشكًا على الموت...

إذن دارُنا مأوى نضيف فيها الصعاليك من الناس وتفرش لهم كأنَّ مدينتَي نيويرك وسان فرنسيسكو تخلوان من المآوى ينزلها اهل الكُدْية. فنعمًا فعلت. وما اسم صديقك؟

— يُدعى فاضلًا

— زِهْ زِهْ. لا اعهدهُ الَّا احدًا من مواطنيك السوريين ضربَ في الارض فاحتلَّ

بلادنا يطلب المعاش. ما احنك على اوباش قومك. ولكن اني ساكفلُ بهِ واذا قضت الحاجة سأكلمهُ بلسانهِ العربيّ

وكان فاضل في غضون ذلك واقفًا يتسمّع من خصاص الباب. ومع أنهُ لم يتقن بعدُ الحكيّ بالانكليزيّة كان مع ذلك يفهم منها ما يكفيهِ لامورهِ

فلمّا طرق مسامعهُ كلام ميس جنيّ علا جبينهُ الاحمرار وفارت في قلبهِ مراجل الأنفة. كيف لا وهو كبير ضيعتهِ كان يكرّمهُ اهلها ويعتبرونهُ بينهم كأنهُ سيّدهم وهاك الآن امرأة غريبة تعيّرهُ باصلهِ وتبخس شأنهُ وتسومهُ الذلّ الوانًا وتعتبرهُ كأنهُ احد صعاليك الازقّة لا يستحقُّ ان يُقبل في دار الناس مهذّبين

فاطرق فاضلٌ مفكّرًا في امرهِ. تُرى ما العمل أيبقى في هذه الدار صابرًا على الذلّ والهوان. او ليس الاولى بهِ ان يخرج عزيزًا شريف النفس ولكن الى اين يذهب وليس في كيسهِ فلس يبتاع بهِ لقمةً من الخبز ليسدّ بها جوعهُ

وفيما كانت هذا الافكار تشغل عقل فاضل علا صخبُ الميس جني وزاد تبكيتها لزوجها حتى ارتعدت فرائص الوافد المسكين وخاف ان تخرج اليهِ وتأمر الخدم بان يزجوهُ في الزقاق ليموت فيهِ جوعًا

وفي واقع الحال انفتح الباب بعد هنيهة وخرج اليهِ نسيب بغتةً وعيناهُ تتّقدان في محاجرهما فقال لفاضل: «اتبعني» ولم يزد على ذلك شيئًا

فظنَّ المسكين سوءًا ونزل الدرج خلف نسيب وهو متيقّن انهُ سيُلقى بهِ خارج الدار بلا نصير ولا معين ليتخلّص من ملامة زوجتهِ الصخّابة. فتواردت على بال فاضل كلُّ الاخطار التي ركبها وكلّ الاهوال التي قاساها ولمّا كان يحسب انهُ نال برغوبهِ رأى نفسهُ في بليّة اشدّ من البلايا السابقة عرضةً لنوائب الدهر وصروف الليالي في مدينةٍ كبرى لا يعرف فيها احدًا يمدُّ اليهِ يد المساعدة

فأثّرت هذه الهواجس في قلب فاضل ايّ تأثير ولمّا لم يزل بعدُ متهوكًا من اوجاعهِ الشديدة التي لقيها في نيويرك كانت هذه الضربة الجديدة لازبةً قاضية. فخطا بعض خطوات في اثر نسيب وسقط على الارض مغشيًا عليهِ

امّا نسيب فكان يواصل سيرهُ الحثيث ويرى انَّ فاضلًا يتبعهُ. فالتفت بعد قليل فلم يشاهدهُ فتعجّب ونكص على اعقابهِ ليطلبهُ فوجدهُ على الحضيض دون حراك

فاسرع نسيب الى اهل دارهِ واتى بهم من ساعتهِ فاحدقوا بفاضل وحملوهُ كأنهُ ميتٌ الى الدار وأضجعوهُ على فراش وصبُّوا على جبهتهِ ماء باردًا ثم فركوا اعضاءهُ فركًا عنيفًا الى ان فتح عينيه بعد مدَّة

فاقترب اليهِ نسيب ليرى حالتهُ فسمعهُ يردّد بصوت ضعيف:

من انت ؟ من انت ؟

— أفلا تعرفني ؟ انا صديقك نسيب .

— نسيب . . . نسيب الذي طردني من بيته . . . انقلوني من هنا . . . لا اريد ان اسكن في هذا البيت . . . ومن كلّ هؤلاء الذين حول فراشي . . . اواه اظنُّهم نقلوني الى المستشفى لأموت مع الفقراء وتُشرَّح جثتي . . .

قال هذا وأغمي عليهِ ثانيةً . فوضع نسيب يدَهُ على جبهته فاذا وجههُ يتلظّى نارًا فارسل بعض الخدم يستقدم طبيبًا لعلّهُ يرى لمرضهِ دواء

فوصل الطبيب بعد قليل وسأل عن حال العليل وقصّتهِ . فلمّا وقف على خبر غرقهِ جسَّ نبضهُ مرارًا فقال:

انَّ حالة المريض تُنذر بخطر عظيم فانهُ قضى ليلةً كاملة وعليهِ ثيابٌ مبلولة في شدَّة البُرد فإنْ هذه الحمّى الخبيثة الّا نتيجة مصيبتهِ الاولى ولعلَّ صدرهُ ايضًا قد أصيب بداء عقام

فلمّا سمع اهل الدار قول الطبيب وجموا ساكتين . وبقي مستر نسيب في حيرة وقلق لاسيما بعد كلام فاضل ينسب اليهِ انهُ اراد طردهُ . ولم يكن نسيب فكّر في طردهِ بل لم يظنَّهُ سمع كلام امرأتهِ الجافي . وكان خرج ليُنزلهُ في حجرةٍ يأجرها لهُ فيسكنها بضعة أيام قبل ان يسافر كلاهما الى معادن الذهب في كاليفرنية فيشتغلا كثيرًا يكين فيها . امّا فاضل فتأوّل افكار نسيب بخلاف الصواب وعزا اليهِ ما كان براء منهُ فأصيب ببليّة جديدة لا مناص لهُ منها

فالتفت نسيب الى الطبيب وسألهُ بصوت متخافت: «وما رأيك في مريضنا ياجناب الدكتور» فحرّك الطبيب رأسهُ قائلًا: مالك تسألني ألا ترى انهُ على شفا المنيَّة ؟

قال هذا وخرج مودّعًا

(ستأتي البقيَّة)